فليكس فارس

لصديق شيبوب

في أواخر الشهر الماضي فجعت العربية بأديب من خيرة أدبائها ، وخطيب من أبلغ خطبائها. ورزئت العروبة بداعية من أخلص الدعاة لها ، ومجاهد من أبر المجاهدين في سبيلها . وفقدت الانسانية فرداً كان من أنبل أفرادها قلباً، وأتومهم خلقاً، وأصدقهم عاطفة، وأخلصهم أمانة ووفاء

انتقل الى رحمات ربه المغفور له فليكس فارس وقد كان كل هذا . فلا غرو اذا عظم خطبه على اللغة والعروبة ، وبكاه أصدقاؤه وعارفو فضله العديدون المنثرون في الاقطار العربية كلها وبلاد المهجر وشاطرهم حزنهم عليه وشعورهم بالفجيعة فيه جميع الناطقين بالضاد

وإذ نحاول اليوم ترجمة حياته والالمام بمواهبه وصفاته نريد ان يعرف هذا العالم العربي أي رجل فقد بفقده . كان يمثل جيلاً من أبناء العربية يكاد يزول أفراده ، ولوناً من الأدباء يعزّ أن نلقى اليوم نظيره

ولد المرحوم فليكس فارس في ٢٧ دسمبر سنة ١٨٨٢ بقرية «صليما» التابعة لقضاء المتن الاعلى « المحاطة بغابات الصنوبر القائمة » من اسرة لبنانية قديمة أنبتت اكثر من واحد خدم لبنان وحكوماته المتعددة

كان والده المرحوم « حبيب فارس » كاتباً وشاعراً تلقى علومه بمدرسة عينطوره وعين في الثانية والعشرين من عمره رئيساً للدائرة الاجنبية وسكرتيراً خاصًّا لمتصرف الجبل رستم باشا وما لبث ان اعتزل الخدمة وأخذ يعارض في اساليب حكم جبل لبنان ، وكان قد تولى متصرفيته واصا باشا . فاضطر اخيراً الى النزوح الى مصر حيث أصدر صحيفة « صدى الشرق » ليحارب على صفحاتها المظالم التي كانت تقع على لبنان واهله في ذلك العهد . وقد حاول واصا باشا الانتقام من أسرته التي ظلت مقيمة في « صليما » فأنزل بها شتى الوان الاضطهاد . وقد شهد فليكس فارس الصغير هذا الاضطهاد فانطبعت نفسهُ منذ صغرها على حب الحرية والثورة بالظالمين

وكان المرحوم حبيب فارس قد تزوج بالسيدة « لويز شفاليه » وهي سويسرية بأمها وهولندية بأبيها . وقد حنت هذه السيدة الفاضلة على سرير طفلها الصغير فليكس تنشده الموسيقى العربية

التي تعلمتها من وطن « جان جاك روسو » فاستعد عقله لفهمها ، وصارت فيما بعد « تصل الى شعوره الباطن الخفي اهتزازات هذه الموسيقى كأنها صدى خافت لصوت بعيد . . . » حتى انهُ كان اذا رجع « الى كوامن الغريزة يشعر بالفطرة العربية متغلبة على سائر ما ورث من نزعات أوربية »

وما خصهُ فليكس فارس بالموسيقى عند ما تحدث عن نفسهِ لستطيع ان نمسهُ حيث يشمل الثقافة والادب ، فقد نشأ متغلبة عليهِ نوازع الادب الفرنسي ثم لم يلبث ان تخلص من أثرها فصار ادبياً عربياً صميماً

تلقى فليكس فارس علومهُ الاولية بمدرسة « بعبدات » ثم اخذ العربية عن والده والفرنسية عن أمهِ . ولم يلبث ان برع باللغة الفرنسية وشغف بها وصار يستلهمها فنهُ العربي

في اثناء هذا كانت أسرتهُ قد انتقلت من « صليما » الى « المريجات » ، وهي البلدة القائمة عند منحدر « ضهر البيدر » في اتجاه دمشق . ومنزل أسرته فيها عند منحدر الوادي تحوطهُ الاشجار والكروم ويطل على منبسط سهل البقاع ذي الألوان المختلفة والمناظر البهجة

هذه هي العناصر التي كوّنت فليكس فارس عند ما استقبل الحياة بعد اتمام دروسهِ في سنة ١٨٩٨ وأخذ يحترف التعليم في بعض مدارس لبنان ويعالج الأدب في صحفهِ وفي بعض المجلات المصرية كالمقتبس والجلبس ومجلة سركيس

فكانت النزعة الفرنسية تتغلب وتتنذر على أدبهِ العربي . وقد وصفهُ في ذلك العهد الاديب خير الله خير الله في كتابهِ الفرنسي « سوريا » فقال انهُ « حاول أن يقتبس ما في الأدب الفرنسي من جمال ليدخلهُ على الأدب العربي . وكان النقد الذي وجه اليه أن الهامهُ غريب عن العربية » ثم قال : « حقاً أن اسلوبه كان في بدايته معقداً ، وفكرته مبهمة غير مستقرة تماماً . ثم على أن هناك اشياء لم تهضم . وزاد اللغويون على هذا فقالوا انهُ كان يسيء الى قواعد اللغة ولكنهُ عوض عن هذا جميعه بميزات طيبة كالاحساس والخيال والانسجام واختلاف الافكار والصور وخصبها ، لذلك عند ما ظهر خطيباً للمرة الاولى أثار حماسة فياضة »

وقد كان ظهوره خطيباً عند صدور الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، اذ قام المصلحون ينادون بالحرية والاخاء والمساواة ، فائتلف المتباعدون وتقارب المتباعدون وغمرت البلاد موجة الاخاء الشاملة التي تجمع بين ابناء الوطن الواحد على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم فاذا الهلال والصليب يمشيان جنباً الى جنب في ظل الوطن ، واذا الشيخ والقس يتعانقان تحت راية الامة والدولة

قام فليكس فارس وقتئذٍ خطيباً يستمد من روح ابناء وطنه هذا الوئام الناشئ على الوجوه ويغذيه بما في نفسه من حب الحرية وكراهية الظلم والاستبداد فرحب به مواطنوه وانزلوه المنزلة التي هو خليق بها ولقبوه بخطيب الحرية

ولم يكتف فليكس فارس بنضاله على المنابر بل اجرى قلمه للدفاع عن مبادئه ونزعات نفسه فأصدر في ٨ فبراير سنة ١٩٠٩ صحيفة اسبوعية سماها « لسان الاتحاد » التي ظلت حية الى ٤ أغسطس سنة ١٩١١

في ذلك الطور من حياة فليكس فارس طبعت نفسه بطابعها الخاص واتخذ تفكيره شكله الكامل ونما النمو الذي ظل يسير عليه طيلة حياته

وكان قد عين استاذاً للغة الفرنسية في المكتب السلطاني بحلب سنة ١٩٩٠ فأقام فليكس فارس في هذه المدينة الى اواخر الحرب الكبرى . وحين دخلت الجيوش العربية سوريا التحق بها وعين سكرتيراً لجعفر باشا العسكري ثم جاء بيروت واتصل بحكومة الانتداب فارسله الجنرال « غورو » الى الولايات المتحدة مع الفنان المعروف المرحوم « جان دبس » ليتصلا بالبنانيين والسوريين في مهجرهم ويدعوهم لمساعدة وطنهم ويبينا لهم مهمة فرنسا في الشرق فقاما بالمهمة التي عهد اليهما بها على أوفى وجه

اتصل فليكس فارس في اثناء اقامته باميركا بالاوساط العربية وادبائها وتوثقت اواصر الصداقة بينهُ وبين نفر عديد منهم وفي طليعتهم جبران خليل جبران كما اتصل بالاوساط الفرنسية ممثلي الدولة الفرنسية الرسميين. ثم عاد الى لبنان وفي نفسه مشروعات سياسية لم يستطع تحقيقها على الرغم من اقناع الجنرال « غورو » بصحتها . وقد هنأه « غورو » بنجاحه في مهمته وعرض عليه منصباً أباهُ وفضل الاشتغال بالمحاماة وقيد اسمه امام محكمة التمييز (النقض والابرام) واشتهر بتفوقه في المرافعة امام محكمة الجنايات

عند ما خلا منصب رئيس نقابة الترجمة ببلدية الاسكندرية رشح فليكس فارس نفسه لهُ وفاز به فانتقل الى هذه المدينة سنة ١٩٣١ ولم يلبث ان اتصل بالاوساط الادبية المصرية فذاع صيته وعلا ذكره واخذ يؤلف الكتب ويلقي المحاضرات والخطب بهمة ونشاط عظيمين حتى وافته منيته في صباح يوم الثلاثاء ٢٧ يونيه الماضي فذهب بكنة اخلاقه محمودة آثاره

***

هذا هو الرجل ، اما الاديب فقد ذكرنا فيما تقدم كيف استهل فليكس فارس حياته الادبية قلق العبارة والاسلوب بارز الالهام العربي . على انهُ لم يلبث ان تخلص من هذا وذاك واصبح كاتباً عربيًّا قوي العبارة صحيح الاسلوب ، دقيقاً في تخير الفاظه تجري على قلمه سهلة سلسة في قوة ورصانة . وقد ظهرت هذه المزايا في نثره وشعره

وقد تطور الهامه وتفكيره كما تطور اسلوبه . وهو اذا ظل يدين للثورة الفرنسية بمبادئه الحرية والاخاء والمساواة التي جاهد في سبيلها طول حياته ، واذا ظل ينادي بمبدأ التعصب

ووجوب تآلف الاديان وعدم التفرقة بينها وبين بنائها ، فانهُ عكف على تقاليد الشرق فاخذ يقول بوجوب احترامها ، وهي التقاليد التي ارادها مستمدة من الديانات الثلاث المتأصلة فيه ومن مجموع العادات التي درج الشرق عليها سواء في الاجتماع أو الفن أو الادب

ويطول بنا الحديث اذا شئنا أن نعرض لتفصيل هذه الآراء التي كان يشيرها حياة رسالته الادبية والاجتماعية فقد فصلها رحمهُ الله في المحاضرات التي القاها في سنواته الاخيرة وجمعها في كتابه « رسالة المنبر الى الشرق العربي » وفيها يجد المطالع كيف كان فليكس فارس يمزج بين فكره وعاطفته ، ولعله كان يستوحي تفكيره من قرارة صدره الفياض بالشعور اكثر مما كان يستنزله من معين عقله الصائب . وقد كان ذا شعور متسع الافق ، وخيال رحب الجوانب

وقد كتب فليكس فارس كثيراً ، وعالج فنوناً شتى من فنون الادب كالشعر والقصة والاقصوصة . ومن تآليفه المطبوعة قصتا « الحب الصادق » و « شرف وهيام » وكتابا « النجوى الى نساء سوريا » و « رسالة المنبر الى الشرق العربي » . وكان قد أعد غيرها للطبع مما فيها ديوان شعر بعنوان « القيثارة » ولكن الاجل لم يفسح له لاتمام مشروعاته الادبية

وقد عكف في سنيه الاخيرة على ترجمة روائع الادب الاوربي فنقل قصيدة « ورلا » التي نشرتها « المقتطف » وكتاب « اعترافات فتى العصر » وهما للشاعر الفرنسي « الفريد دي موسه » وكتاب « هكذا تكلم زرادشت » للمفكر الالماني « فريدريك نيتشه »

اما الخطابة فقد بلغ فيها فليكس فارس حدًّا من التفوق كبيراً . ولعلها كانت مصدر شهرته وذيوع صيته اكثر مما كان ادبه

وكانت له قدرة عجيبة على المواقف الخطابية لا يعرف الكلال ولا التعب حتى قيل انه كان يعلو المنابر اكثر من عشر مرات في اليوم الواحد

وكان لا يعتمد على مواهبه الطبيعية في الخطابة بل يعالجها بأسلوب فني بارع . كان انيقاً في موقفه ، فنيًّا في اشارته ، بليغاً في عبارته . وقد فطر خطيباً أبلغ منهُ كاتباً ، فقد كان حين يرتجل تواتيه الالفاظ مطواعة تنثال في بريق عينيه وتجري سحراً حلالاً على لسانه

***

واليوم وقد أسكت الموت ذلك الصوت الجهير وأخمد تلك الجذوة المتقدة وعاد فليكس فارس الى لبنان حيث نقلوا جثمانه كما عاد من قبله جبران خليل جبران فهو يرقد الآن في قرية المرجات الى جوار آبائه واجداده حيث يخلد الجيل الاشم بأرزه وصنوبره وشمسه وارضه وسمائه وهوائه ويحتفظ العالم العربي بذكراه ما بقيت في الصدور العربية نزعات الشمم والفخار والاشادة بالرجال العاملين